مجلة ميلاف للبحوث والدراسات

المجلد 6 العدد 2 / ديسمبر 2020

ص ص: 60-77

أخلاقية التعامل مع الآخر، في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

The Ethics of Dealing with the Other, in the Thought of Prince El-Amir Abdelkader Al-Jazairi

سليم مزهود

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة، (الجزائر)

مخبر الدراسات التراثية والثقافية

salimsimez@gmail.com

الاستلام:2020/11/19 القبول:2020/12/12 النشر: 2020/12/31

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز أخلاقيات التعامل مع الآخر في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، والتي أكسبته مكانة عظيمة عبر التاريخ، فاعترف له العدو قبل الصديق، لاسيما أنّ الأمير عبد القادر تبرز أخلاقياته الإنسانية المتسامحة في الشدائد وحين يكون في مركز قوة، مما أسهم بشخصيته في نشر فكر التعايش السلمي وترسيخ مبادئ حقوق الإنسان، قبل ميلاد هيئة الأمم المتحدة التي استنبطت فيما بعد كثيرا من هذه الأخلاقيات والحقوق، والسؤال المطروح هو: فيمَ تمثلت هذه الأخلاقيات والمبادئ، وأين برزت؟، للإجابة عن السؤال خضع المقال للمنهج الوصفي.

الكلمات المفتاحية : أخلاقيات التعامل، الأسرى، حقوق الإنسان والمرأة، الأمير عبد القادر.

Abstract:

This article aims to clarify the ethics of the convivial and behaviour with other in the thought of El-Amir Abdelkader Al-Jazairi, that gained him a high standing throughout history, until the enemy and friend confess by him , especially since El-Amir Abdelkader have a tolerant human ethics in adversity and when he is in a position of power, which contributed to spreading the idea of peaceful coexistence and consolidating human rights principles before the birth of United Nations, which later taken many of these ethics. The question: What are these morals and principles, and where did they appear?To answer the question, the article is subject to the descriptive method.

Key words: *Behaviour ethics, Prisoners, Human and women's rights, El-Emir Abdelkader.*

1.مقدمة:

قدّ الأمير عبد القادر الجزائري أفضل نموذج للمقاومة الإنسانية في العصر الحدي، وفق جانب عظيم من الأخلاقيات، يتضمن قيم التسامح مع الآخر، ويحارب الظلم والفساد في الظالمين، لكن ذلك لا يعني أنه يطلب رؤوسهم، فالظالم قد يصير عادلا، والعادل قد يصير ظالما، ومن ثمَّ فإن الظلم هو العدو الرئيس، وليس الظالم في حد ذاته. ولا غرابة أن يتأثر به الأدباء والشعراء ومختلف الشخصيات السياسية والأدبية الفاعلة في الفكر الإنساني وثقافة حوار الحضارات.

فقد منحت مؤسسة الأوسيمي السويسرية غير الحكومية في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 2010 جائزتها السنوية الثالثة في التسامح إلى اسم الأمير الجزائري الراحل عبد القادر الجزائري، تقديراً لدوره في تأسيس القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان، وثناءً على مساعيه الحميدة لنشر روح التسامح في فترات عصيبة من التاريخ.

لقد كان الأمير عبد القادر الجزائري بحق أول مؤسس لثقافة التسامح في الأدب الجزائري الحديث، إذ دعا إلى حرية الفكر والتعايش السلمي بين الشعوب، وترسيخ حقوق الإنسان قولا وفعلا من قبل أنْ تولَدَ هيئةُ الأمم المتحدة. فغدا الأمير عبد القادر مدرسة عالمية للسلم ونشر ثقافة التسامح بين الناس والشعوب في العالم.

والإشكال الرئيس الذي تبنى عليه هذه الورقة هو: ما هي المبادئ السمحة التي جعلت من الأمير عبد القادر مثالا في ثقافة السلم والتسامح بين الشعوب، وكيف وظفها في التعامل مع المحتل الفرنسي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، فقد تضمنت الورقة المباحث الآتية:

- تعريف الأمير عبد القادر.
- إنسانية الأمير عبد القادر.
- الأخلاقيات القتالية في التعامل مع المحتل.
- ملحق الصور.

2. تعريف الأمير عبد القادر:

1.2 حياة الأمير عبد القادر:

ولد الأمير عبد القادر الجزائري في السادس والعشرين من شهر سبتمبر 1807م، بالقيطنة التابعة لمدينة معسكر. (ابن عبد القادر، 1964، ص50)

والده هو محي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار؛ رجل فقه وعقيدة، ومن أبرز أجداده: إدريس الأكبر؛ مؤسس مدينة فاس المغربية، سنة 172هجرية (عبد القادر، 2007، ص46)

رباه والده على الطريقة القادرية، أجاد حفظ القرآن الكريم في سن الثانية عشر من عمره (شعابنة، 2001، ص27)، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم انتقل إلى آرزيو ليدرس على يد قاضيها الشيخ أحمد بن الطاهر، ثم سافر إلى وهران وانتسب فيها إلى مدرسة أحمد بن خوجة رفقة أبناء الأعيان، ثم عاد إلى القيطنة عام 1823م، تعرف على بعض العلماء والصالحين أثناء سفره في مارس 1825م إلى الحج عبر الشرق الجزائري ثم تونس ثم الإسكندرية والقاهرة والسويس، وجدة والمدينة المنورة، وبعد الجد اتجه إلى دمشق ثم بغداد(شعابنة، 2001، ص340).

وحجّ الأمير عبد القادر الجزائري مرتين واعتمر مرتين، ثم عاد إلى بلدته عام 1828م (عبد القادر، 2007، ص46).

لقد كانت رحلة الأمير عبد القادر مؤثرة في حياته إذ بدأ يميل إلى اعتزال الناس، وينصرف إلى عبادة الله ويزداد اهتمامه بالعلم لاسيما ما تعلق بالفلسفة واللغة، إذ قرأ أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وكتابات مشاهير المؤلفين من عهد الخلافة، واطلع على الفلك والجغرافيا والطب، وتشرّب التصوف من كتب محي الدين بن عربي، وكتب ابن سينا وغيرهما (بوعزيز، 1964، ص150).

ولما احتلت فرنسا الجائر عام 1832م، قاوم الاحتلال الفرنسي رفقة أبيه الشيخ محيي الدين، فاشتهر أمره وعرف بشجاعته وحكمته وصبره، في أشرس معركة مع القوات الفرنسية عند أسوار مدينة وهران، مما أهله ليخلف أباه في قيادة المقاومة ضد الاحتلال، وبويع عند شجرة الدردارة بسهل غريس في 28 نوفمبر 1832م، ثم حصلت له البيعة بمعسكر في شهر فيفري من عام 1833م.(ابن عبد القادر، 1964، ص237)

وإثر المقاومات العنيفة ضد الاحتلال أرغم الأمير عبد القادر قائد الجيش الفرنسي بوهران دي ميشال DesMichels على عقد ومن معاهدة معه في 26 فيفري 1834م(ابن عبد القادر، 1964، ص185)

كانت معاهدة دي ميشيل انتصارا باهرا للأمير عبد القادر الجزائري في المجال الدبلوماسي، إذ نصت على الاعتراف به أميرا للمؤمنين، وتبادل القناصل، كما نصت على تبادل الأسرى وحرية العمل بالدين الذي ينتمي إليه الفرد، وحرية التجارة، وضرورة تبادل المجرمين الفارين(تشرشل، 1982، ص17)

ولم يتوانَ الأمير عبد القادر عن تحقيق العدالة ودعم قضاياها، بتوظيف الوسائل الممكنة في سبيله، ومن ذلك تعيينه ابن دوران اليهودي قنصلا في مدينة الجزائر، وتعيينه (كازماني) الإيطالي وكيلا للولايات المتحدة في الجزائر، إذ أرسل له الأمير ما نصه: السلام على من اتبع الهدى... بلغنا أنك من أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة ... كتبنا لك هذا إعلاما بأنْ تكون عند الفرنسيين وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها، وتجري أمورنا معهم على نظرك وتعرفنا بما هو الألح لنا معهم، والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرّفك به... إننا نحب الخير والهناء والعافية والأمن في سائر الوطن (ابن عبد القادر، 1964، ص16).

إلا أن فرنسا قد عارضت هذا التعيين خوفا من تزايد نفوذ الولايات من المتحدة على المنطقة من جهة، ورغبة منها في كسر كلمة الأمير حتى لا تكون سلطته قوية، فجاء رد الأمير قويا بقوله: "ليس لفرنسا حق أنْ تجبرنا على تعيين وكيل ضد إرادتنا وميلنا، لأن ذلك منوط بنا... هذا يناقض مبادئ الشرف الذي يجب أنْ يراعى في كل الأعمال... فإنْ كنتم استحسنتم خرْقَ الشروط وإبطال المعاهدة، فنحن مع عدم الميل إلى ذلك نجيبكم، ولا يخفى أنّ البغي وخيم، ونتيجة الشر تعود على البادي (ابن عبد القادر، 1964، ص217).

وتوالت المعارك، حتى أرهقت الاحتلال الفرنسي إثر إلحاق الهزائم به، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض مع الأمير، من خلال موفدها الجنرال بيجو Bugeaud، الذي سعى لعقد معاهدة مع الأمير للحفاظ على ماء الوجه، فكانت معاهدة تافنا Tafna الشهيرة في 30 مايو 1837م(ابن عبد القادر، 1964، ص277)

وقد أتاحت له هذه المعادة تحقيق مكاسب كبيرة، إذ انصرف للاهتمام بشؤون الدولة الجزائرية التي أقام دعائمها، فوحد القبائل ووفق المعاهدة فإن فرنسا تعترف بالتمثيل الدبلوماسي لدولة الأمير عبد القادر.

وتعدّ معاهدة تافنا، حلقة هامة في تاريخ الجزائر رغم أنها دامت سنتين وخمسة أشهر، لكن أهميتها ترجع إلى سببين اثنين، أولهما؛ لأنها النص الوحيد المعترف به من الحكومة الفرنسية كاتفاق رسمي بينها وبين الحكومة الجزائرية في عهد الاحتلال الفرنسي، وثانيهما؛ لأن نصوص المعاهدة كانت مثار جدل بين الطرفين، أضف إلى ذلك أن زمن المعاهدة قد أتاح للأمير فرصة التفرغ لأجل مقاومة عصيان القبائل والطرق الصوفية المعارضة، ومحاولة ضمها تحت جناحه، وكذا محاولة بسط سيطرته على ثلثي الجزائر، إذ انحصرت مناطق الفرنسيين في وهران والجزائر وجزء من قسنطينة(خيربك، 2012، ص425).

ولم تدم المعاهدة طويلا، إذ نقضها الاستعمار الفرنسي واستفز الأميرَ عبد القادر بالهجوم على أهم المناطق في الشرق الجزائري؛ فاحتلوا قسنطينة وجيجل وسطيف، مما دعا الأمير إلى خوض أشهر المعارك التي أدارها بقوة واقتدار كبيرين؛ في سيدي إبراهيم، يوم 23 سبتمبر 1845م، وانتصر فيها الأمير انتصارا عظيما، ودبّ الهلع في صفوف المستعمرين، إذ يروي أحد الجنود الفرنسيين قوة المعركة وشدتها على الفرنسيين بقوله: "كنت خلال خمسة عشر عاما بعد المعركة تتردد في أحلامي في كل ليلة بعض تفاصيل المعركة الرهيبة، وحتى اليوم لا تزال تفاصيل المعركة حية في ذهني كما لو شاهدتها أمس"(العربي، 1984، ص75)

ومع تعيين الجنرال بيجو ازداد توسع الفرنسيين واستيطانهم في أرض الجزائر، انطلاقا من فكرته الداعية إلى احتلال الجزائر بأكملها، إذ اعتبر أن الاحتلال الناقص مجرد وهم، وإن احتلال الجزائر خطأ فإن رغبت فرنسا في الخطأ فعليها أن تعمله بقوة على حد قول بيجو(خيربك، 2012، ص426).

وعاد الاستعمار الفرنسي بقوة وأقام تحالفات في الغرب الجزائري والمغرب، ملحقا خسائر كبيرة بجيش الأمير عبد القادر، فلم يرحم الأرامل والأطفال، وكان أن بعث الأمير برسالة إلى الجنرال لامورسيير تقضي بالتسليم للفرنسيين بشرط حمله مع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية وألا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من العساكر، وأن يعطوا

الأمان للباقين، فكانت الموافقة والاستسلام في 23 ديسمبر 1847م(ابن عبد القادر، 1964، ص498)

ولما استسلم الأمير وأسر بعد ذلك بعث برسالة إلى لامورسيير يقول فيها: "إن كثيرا ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب، وأجبرتني على التسليم، وإلقاء السلاح، فينبغي لك أن توضّح لهم القضية، وتوقفهم على ما جهلوه من أمرنا... فإن وفيتم فإنكم تنالون فخرا كبيرا بين الأمم والدول، وإن نقضتم وألفتم، فلا شكّ أنكم ترتكبون أمرًا شنيعا، يسقط به قدركم(ابن عبد القادر، 1964، ص16).

وثق الأمير في البداية بالفرنسيين الذين حملوه على أساس التزود بالمؤن على البارجة الفرنسية المتجهة إلى الشرق، إلا أن الأمير تفاجأ بطلب حاكم طولون لما وصلت البارجة إلى ميناء طولون، بأنْ طلب منه مرافقته نحو برج لاملاك، وانتظار الأوامر من باريس.

وأحس الأمير بالخديعة، فجاء الكورونيل دوماس مندوبا عن الملك، وعرض عليه الإقامة في باريس بما يليق به، وأخبره أنه ليس بإمكانه الذهاب إلى الشرق.

فأجاب الأمير عبد القادر: "إنّي لا أقبل، ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج... وعلى كل حال؛ فالعارُ والعيبُ عليكم لا عليّ..."(ابن عبد القادر، 1964، ص17)

فعرض عليه المندوب مرة أخرى مرافقة إبراهيم باشا بن محمد علي، فردّ الأمير عليه قائلا: "إبراهيم باشا يرى باريس منتزها، أما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي"(ابن عبد القادر، 1964، ص5)

ولما غادر الأمير مع رفاقه سيق إلى قلعة لامالق La Makague مأسورا مخدوعا، إذ إنّ الجمهورية الفرنسية بعد الثورة الفرنسية التي أطاحت بالمكلية (23فيفري-2ديسمبر1848م)، قد أعلنت أسر الأمير، بقولها: "إن الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأي التزام لعبد القادر، وإنها تعتبره كما تركته الحكومة الفرنسية أسيرًا"(تشرشل، 1982، ص256)

وظل الأمير متنقلا بين السجون الفرنسية فمن طولون إلى بو إلى بوردو إلى نانت، إلى أن استقروا به في قلعة أمبواز Amboise، وبعد مرور السنوات، زار البرينس

لويس نابليون Louis Napolion الأمير في سجنه، وأثنى عليه، وسمح له بالذهاب إلى الشرق بشرط عدم العودة إلى الجزائر(الوزير، 1984، ص83)، واستقر بدمشق واشتهر فيها بالتأليف في تاريخ الفكر الإسلامي والإصلاحي ونشر قيم التسامح بين ذات بيْن المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين، كما اشتهر بثقافته الصوفية(الوزير، 1984، ص84)

وأثناء مقاومة الاحتلال الفرنسي، عمل الأمير عبد القادر على تنظيم أطر الدولة الجزائرية عسكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا(حرب، 1983، ص74)، وحارب الفساد الأخلاقي والآفات الاجتماعية(شريط و الميلي، 1965، ص187)

قال المؤرخ الفرنسي؛ أوغستان برنار Augustin Bernard يصف الأمير عبد القادر بقوله: "وقد أظهر الأمير بعد أن وسد إليه الأمر على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق، حنكةً سياسية وبراعة عسكرية فائقة، وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خلق ليحكم، فكان بسيطا في لباسه، متواضعا في معشره، أنيقا جميلا شجاعا فارسا، وكان متدينا عن إخلاص ومن صميم فؤاده، ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه، بل ليقود أمته في طريق الفلاح، كان قاسيا عند اللزوم، رحيما عند الاقتضاء، وكانت شدته ولينه بحساب وتقدير، وقليل مثله في المسلمين، وكان يدرك معنى الدولة إدراكا تاما، كما كان يدركه هو بكل تفصيلاته وجزئياته من النظام، والإدارة وجباية الضرائب وتنظيم الجيش، وكان أجل وأبرز أعدائنا في الجزائر"(حقي، 1961، ص75)

كان الأمير يتمتع بصحة جيدة في شبابه وشيخوخته بالرغم من الكفاح المسلح وقيادة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي ورغم المصائب والأسر. إلا أنه كان صابرا متجلدا لم يظهر ضجرا ولم يترك الصلاة، وفي ليلة السبت 24 مايو 1883م، في قصره بقرية دمر، ضاحية دمشق، جاءته الموت، عن ست وسبعين سنة (ابن عبد القادر، 1964، ص718)

ويعد الأمير عبد القادر رائدا سياسي وعسكريا مقاوما، قاد جيش إفريقيا خمسة عشر عاما أثناء احتلال فرنسا الجزائرَ، وهو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، ورمز المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار.

2.2 رمزية شخصية الأمير عبد القادر:

إن للأمير عبد القادر الجزائر مكانة عظيمة في سجل تاريخ الأبطال، وهو بحق شخصية فذة تركت بصمتها الواضحة علَمًا للبطولات تستقي منها الأجيال اللاحقة معاني الحكمة والشجاعة والوفاء والتسامح والأخلاق الفاضلة، إنه بحق مرجعية في أكثر مجالات العلم والحياة أهمية، فهو عالم أديب، ووطني مخلص، وكريم الأخلاق متسامح، فيلسوف متصوف، وسياسي حكيم، وخبير اقتصادي واجتماعي، ورجل مؤمن موحد.

وقد اشتهر الأمير عبد القادر الجزائري بحنكته في التعامل مع القضايا السياسية والعسكرية والدبلوماسية، إذ تفاعل الأمير في حياته مع القضايا المحلية والعالمية مقاوما أو مدافعا أو متعاطفا، فسجل مقاومته ضد الاحتلال الفرنسي دفاعا عن بلاده الجزائر، بعد أن قادها والده من قبل.

لقد تصدى الشعب الجزائري لهمجية العدوان الفرنسي ضد الجزائر، وقاد المقاومة الجزائرية في الغرب الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي والد الأمير عبد القادر، الفقيه المتصوف محي الدين شيخ الطريقة القادرية، لكن كبره سنه جعله يعتذر عن مواصلة قيادة المقاومة، واقترح على القبائل الملتفة حوله أن يخلفه ولده عبد القادر لقوته وشجاعته في ميدان المقاومة ضد الاحتلال، ولِما لمسه فيه والده من نبوغ وذكاء وفروسية، وقبل الابن عبد القادر تكليف والده قائلا: "إن من واجبي طاعة أوامر والدي"(تشرشل، 1982، ص15)، إلا أن عبد القادر طلب البيعة الشرعية من الناس، واجتمعت عليه القلوب وبايعوه على قيادة المقاومة، وبايعه مجلس علماء معسكر في 2 نوفمبر 1832م بيعة رسمي، ثم بايعه عموم الناس في 4 أفريل 1833م، تحت شجرة الدردارة بوادي فروحة من غريس، وقد كانت محل الاجتماعات الشعبية للشورى والمبايعة والتكلم في القضايا الهامة (تشرشل، 1982، ص56).

لقد استطاع الأمير عبد القادر الوصول إلى ذروة المجد في ريعان شبابه، بتعامله الحكيم مع مختلف القضايا السياسية والعسكرية والدبلوماسية والدولية، بذكائه ونبوغه وحكمته وقدرته على تحليل الأحداث والوقائع، والتنبؤ بمسار القضية التي يدرسها أو يخوض في ثناياها على مستوى التنظير أو أرض الواقع، مما جعل الجنرال الفرنسي توماس روبير بيجو Thomas Robert Bugeaud (1784-1849م) يعترف بشخصية

الأمير المحارب والخطيب الدبلوماسي المشرّع من أعظم رجالات الدولة في عصره(مراد، 1992، ص14).

أدرك الأمير عبد القادر التحولات العالمية التي أفرزتها الحضارة الغربية الجديدة التي أقلبت الموازين وأحدثت الفارق بين الماضي والحاضر، مما جعله يفكر في تأسيس دولة تتجاوز حيز القبيلة والعشيرة، فعمل على توحيد القبائل، وأقام المصانع وهيكل المدينة، وأنشأ جيشا نظاميا سمّاه الجيش المحمدي، وأسس مراكزَ للتعليم على نحو جديد، وأقام علاقات تفاهمٍ مع العالم الخارجي، من منطلق التوازن بين روح الدين وحاجات العصر؛ فكان بحق أول جزائري بعبقريته ينظّرُ لدولة عصرية جزائرية(تشرشل، 1982، ص16).

وفي إطار بناء هذه الدولة العصرية، ينبغي الدفاع عن مقومات البلاد، ومقاومة الاحتلال الفرنسي سياسيا وعسكريا، ولذلك طالب الأمير عبد القادر فرنسا الاستعمارية أن تحترم وعودها وعهودها التي أبرمتها معه، لكن جنرالات فرنسا قد أنكروا أنهم أبرموا عهودا معه ومع الجزائريين من أمثالهم الجنرال لاموريسير وكافينياك (تشرشل، 1982، ص264)

3. إنسانية الأمير عبد القادر:

1.3 الروح الإنسانية في معاملات الأمير عبد القادر:

تبرز الروح الإنسانية في تعاملات الأمير عبد القادر، فتكون أكثر ذات مقام أكثر رفعةً وظهورا، حين يكون في مركز قوة منتصرا، ومن أمثلة ذلك أنه عندما رغب في عقد صلح وهدنة جديدة مع الفرنسيين، تلقّى معارضة شديدة من قِبَل الشخصيات التي تسانده، فدعا إلى جمعية عامة على ضفة نهر الهبرة في 25 ماي 1837م، بإقليم وهراه، حضره أعيان القبائل والشيوخ والقادة العسكريون والمرابطون، فصرح لهم جميعا أن يجب التفريق بين سلام مقبول وسلام مطلوب، مبينا بأن القرآن الكريم لم يدعُ إلى هدر دم دون جدوى، فدعا الأمير إلى تجديد السلام بعد أن استسلم الكفار الذين نادوا بإيقاف القتال، ثم عقد معاهدة تافنا في 30 مايو 1837م(تشرشل، 1982، ص157).

ومن الصور البارزة في الروح الإنسانية التي تميز بها الأمير عبد القادر، ما أورده تشرشل على لسان الأمير إذ قال: كان يظهر لي أن العلم هام جدا، فعملت على تشجيعه، حتى لقد عفوت أكثر من مرة على أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت، لمجرد أنهم

طلبة، ثم أورد مقارنة هامة في قوله: إن الساكن في كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه، ولكن كم سنة يجب عليه أن ينتظر قبل أن يكون في استطاعته أن يذوق ثمار نخلة أخرى يغرسها (عبد القادر، 1966، ص40).

وذكر تشرشل إنسانية الأمير عبد القادر في تعامله مع أسرى الحرب، وعدم تحقيرهم وسبهم، فقال: (إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها الأمير عبد القادر نحو الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب، فكلما كان حاضرا كان الفرنسيون الواقعون في قبضته يعاملون كضيوف لا كأسرى حرب، فقد كان كثير ما يرسل إليهم سريا كميات من النقود تختلف قيمتها من خمسة إلى عشرين دولارا إسبانيا من جيبه الخاص، وكان يوصي لهم أن يكسوا ويطعموا جيدا(تشرشل، 1982، ص161).

وحدث أن الأمير وأتباعه قد تعرضوا لأزمة شديدة في إحدى المرات إذ لم يستطيعوا الحصول على الغذاء الكافي، فتذكر الأسرى الفرنسيين وتعدادهم أربع وتسعون سجينا في معسكره في أشد حالات بؤسهم، فأطلق سراحهم جميعا دون فدية ولا أي مقابل، بل أمر بمرافقتهم إلى الخطوط المتقدمة وسلموا إلى الجانب الفرنسي، ومن مظاهر إنسانيته السمحة أن أعطى رسالة إلى أحد الأسرى من ضابطه الفرنسي يخبره فيها أنه قد منح وسام الشرف لتضحيته من أجل أمن ضباطه، ووضع الأمير الوسام المذكور على صدر الأسير(تشرشل، 1982، ص267)

ومن إنسانية الأمير عبد القادر البالغة أنْ أصدرَ مؤتمرا ضمّ الخلفاء والقواد ورؤساء القبائل في 22 سبتمبر 1843م بإقليم وهران، وجاء في مضمونه أن كل فرنسي مقبوض عليه في الميدان أو في غيره يجب اعتباره سجينا يعامل معاملة طيبة جدا إلى أن تحين الفرصة لتبادله، وأن كل من يحضر جنديا فرنسيا أو مسيحيا آمنا سالما غانما، سينال جائزة قيمتها ثمانية دولارات على الذكر وعشرة على الأنثى، وأن كل من وقع في حوزته فرنسي أو مسيحي فإنه مأمور أن يقوده دون أي تأخير إلى أقرب خليفة، وإلا سيواجه أقسى العقوبات، وفي حال شكوى الأسير من سوء المعاملة، سوف تسقط المكافأة وتسلط عليه عقوبات(تشرشل، 1982، ص169).

2.3 التسامح الديني في تعاملات الأمير:

عرف الأمير عبد القادر بتسامحه الديني، الدال على إنسانيته، فكان يسمح لغير المسلمين بممارسة شعائرهم الدينية، إلى درجة أنه يطلب للأسرى الذين في معسكره

قسيسا ليلقي على مسامعهم المواعظ والدروس الدينية، ويؤمّهم في الصلاة، إذ كتب الأمير عبد القادر إلى أسقف الجزائر قائلا: أرسل قسيسا إلى معسكري فسوف لن يحتاج لشيء، وسوف أعمل على أن يكون محل احترام وتبجيل، لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة، وهي أنه رجل دين وممثل لك.

وحكى تشرشل أنه ذات مرة صاح سجين فرنسي غاضب بحضور الأمير عبد القادر قائلا: أنا بالنسبة إلي فلن أتخلى عن ديني، قد تقطعون رأسي، ولكنكم لن تقدروا على جعلي أرتد عن ديني، فرد عليه الأمير: هون عليك فإن حياتك محرمة عليّ، إنني أحب سماع هذه اللهجة، إنك رجل شجاع ومخلص، وتستحق تقديري، فأنا أحترم الشجاعة في الدين أكثر من الشجاعة في الحرب(تشرشل، 1982، ص161)

ومن أكثر المواقف الدالة على قوة تسامحه الديني ونبذه الصراعات الدينية، حين قام بعض سكان دمشق من الدروز بالاحتجاج العنيف على الدولة العثمانية التي انصاعت لفرض الدول الأوروبية عليها منح امتيازات للمسيحيين في الشام، وتطورت الأمور إلى صراع مرير والاعتداء على المسيحية، مما أدى إلى مجزرة حقيقية، فتدخل الأمير وأرسل الرسل إلى بعض معارفه من مشايخ الدروز، داعيا إياهم إلى التعقل والرحمة، ثم تدخل على رأس فرسانه وأنقذ حياة خمسة عشر ألف مسيحيا من الموت، ولما طلب الدروز من الأمير أن يسلمهم المسيحيين الذين هم عنده، رفض ورد قائلا: "إنني لن أسلم إليكم مسيحيا واحدا، إنهم إخوتي، فتقهقروا وإلا أمرت رجالي بإطلاق الناس"، فظهر الأمير بروح إنسانية منقطعة النظير مدافعا عن إخوته المسيحيين، فنال إعجاب الكثير من الدول الأوربية حينها وأبرزهم بريطانيا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية(أبو عمران، 2005، ص23)، وتلقى الأمير عبد القادر من الإمام شاميل قائد ثورة الداغستان ضد روسيا رسالةَ شكر لحمايته المسيحيين وإنقاذهم في حوادث دمشق(Abouamrane, 2000, P106)

وجاء في الرسالة قوله: "إلى من اشتهر بين الخواص والعوام، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة، واستأصل شجرة العدوان، سمعت أنك خفضت جناح الرحمة والشفقة لهم، وضربت على يد من تعدى حدود الله، كذلك رضيت عند والله تعالى يرضيك"(ابن عبد القادر، 1903، ص140).

4. الأخلاقيات القتالية في التعامل مع المحتل لدى الأمير عبد القادر:

برزت أخلاقيات التسامح مع الآخر، لدى الأمير عبد القادر، حتى في حربه ضد المحتل الفرنسي، إذ آمن بوجود قواعد راسخة للحرب، تتعلق بضرورة التعامل مع الآخر وإن كان عدوا، ويتبين هذا من رده على رسالة وصلته من ديميشال سنة 1933م، يتلمس فيها من الأمير تحرير بعض الأسرى الذين وقعوا في أسره إذ قال فيها: "إن وضعي كما هو لا يسمح لي أن أفعل ذلك، لكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك؛ رسالة من ديميشال إلى الأمير عبد القادر مؤرخة في 12 أكتوبر 1833"، فأجابه الأمير: "إنك تخبرني أنك بالرغم من مكانتك رضيت أن تكون البادئ في الاتصال بي، لقد كان من الواجب عليك أن تفعل ذلك بناءً على قواعد الحرب" (تشرشل، 1982، ص107).

ومن أبرز أخلاقيات القتال في تعامله مع المحتل، ما يأتي:

1.4 احترام العهود والمواثيق: عرف الأمير عبد القادر باحترامه العهود والمواثيق، وعدم خداع الرسل والوافدين إليه، ومن أمثلة التزامه العهد والميثاق أن بعث برسالة إلى ديميشال في يوم 30 أكتوبر 1833م، قائلا: "إن وقوع المودة والمدعاة بالخير معكم لها شروط في شرعنا، وأي شرط يشرط علينا لا تحل لنا مخالفته، ولو ننقطع دونه عن آخرنا، حتى إن من تمام الوفاء بالشرط أنّ المسلم الأسير في يد النصارى، إذا أمنوه وأطلقوا قيده، لا يجوز له الهروب بغير إذنهم في شريعتنا(زوزو، 2006، ص50)..

ويظهر بشكل أكثر وضوحا احترام الأمير العهودَ ونبذ مظاهر الخداع في كثير من ردوده على مراسلات ديمشال التي يطلب فيها وقف القتال، ومن ذلك قول الأمير في إحدى ردوده: "يمكنك أن تثق بأن أي التزام يمكن أن نتوصل إليه، سيكون محل احترام من جانبي، ويمكنك الاعتماد علي، لأنني لم أتخلَّ أبدا عن كلمتي"، حتى أن نابليون الثالث، اعترف بذلك في رسالته التي وجهها إلى الأمير قائلا له: " لقد كنت عدوَ فرنسا، ولكنني مع ذلك لازلت مستعدا أن أقوم نحوك بالعدل الشامل، لأجل شجاعتك وشخصيتك وصبرك في أوقات الشدة، وكذلك إني أشعر بأن الشرف يقتضي أن أضع حدا لسجنك، وأن أعتمد على كلمتك اعتمادا كاملا(تشرشل، 1982، ص110)..

2.4 تسامحه مع القبائل التي رفضت الاعتراف بها قائدا: تسامح الأمير عبد القادر مع القبائل والعشائر التي رفضت الاعتراف بسلطته بعد معاهدة التافنة في 30 ماي

1837م، لكنه غلبهم ولم يقهرهم، بل كان حليما بهم، ووعدهم بأن ينسى رفضهم الاعتراف به، إن بايعوه وتعاونوا معه في مجابهة الاحتلال الفرنسي.

وتسامح الأمير عبد القادر مع كثير من القبائل الفقيرة أو تلك التي تعاني قساوة الطبيعة، وتفتقر إلى موارد الغذاء والمال، وعاملها بدرجة من العطاء والإكرام، وخفّض من قيمة الضرائب التي تدفعها إلى الدولة، على نحو ما تعامل به مع أولاد سيدي الشيخ وأهل القصور في الصحراء(تشرشل، 1982، ص128).

3.4 التسامح مع الأسرى:

1.3.4 معاملة الأسرى: سنّ الأمير عبد القادر مجموعة من القوانين حول كيفية معاملة الأسرى المعتقلين من جيش العدو، إذ كان يدخل الأمير أي فرنسي يتم أسره في الحرب، في خانة أسير الحرب، ويأمر القانون الذي سنّه بهذا الخصوص، أنْ يعامل أسيرا للحرب إلى أن تكون فرصة تبادله مقابل أسير جزائري. ومنع منعا باتّا قتل الأسير المجرد من السلاح(تشرشل، 1982، ص230)، وهذا ما يتوافق مع المادة الثالثة من اتفاقية جنيف.

2.3.4 معاملة المرأة الأسيرة: كان الأمير عبد القادر شديد الإباء من رؤية السجينات، تتأذى نفسه من أسرهنّ، ويرى أنهن ضحية الحرب، وأن الحرب لم تخلق لهنّ، فذات يوم أحضر فرسانه أربع فتيات أمامه غنيمةً، فأشاح بوجهه مكفهرا، وقال: إن الأسود تهاجم الحيوانات القوية، أما أبناء آوى فتسقط على الضعيفة منها"، ولذلك أوعز إلى أمه لالاّ الزهرة التكفل بالأسيرات، فكانت تتولى أمور النساء السجينات وترعاهن، فقد كنّ يقمن في خيمة قريبة من خيمتها تحت مراقبة بعض الحراس، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منهن دون ترخيص من الأمير أو أمه، وكن يفطرن فطورا لائقا، وكانت أمه تواسي السجينة التي تمرض، وتخفف عنها وتوفر لها الراحة والطعام والشاي والقهوة(تشرشل، 1982، ص264)..

3.3.4 تسامحه مع أسرى الحرب الفرنسيين: قاد الأمير عبد القادرة ثورته المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي، لكن حربه لم تكن عسكرية محضة، بل كانت تخضع لمعاني الأخلاق المستقاة من الدين الإسلامي الحنيف، إذ كان يعامل أسرى الحرب معاملة حسنة، حتى يتوهم للرائي أنهم ضيوف، فقد كان رحيما بالرجال الضعفاء والنساء

والأطفال والجرحى والأسرى، وعرف الأمير بين الجزائريين أهل الأرض، وكذا بين الفرنسيين المحتلين، بالنبل وحسن الأخلاق(تشرشل، 1982، ص202).

ومن أمثلة التسامح ما جرى من تبادل لأسرى الحرب، عملية التبادل الشهيرة بين الأسرى، المتفق عليها بين الأمير عبد القادر الجزائري، وأسقف الجزائر ديبوش الذي طلب من الأمير إطلاق سراح أحد السجناء الفرنسيين، فرد عليه الأمير أنْ كان الأجدر أن تطلب مني إطلاق سراح الأسرى المسيحيين كلهم وليس أسيرا واحدا، واستشهد بما ورد في إنجيل العهد الجديد: (عامل الآخرين بمثل ما تريد أن تعامل)، ثم أخبره أن صلاح الأمر أن يتبادل الأسرى بين الفرنسيين الذي هم في أسر جنود الأمير، والمسلمين القابعين في السجون الفرنسية(تشرشل، 1982، ص260).

4.4 الإصلاح بين المسلمين والمسيحيين: شمل التسامح لدى الأمير عبد القادر المحيطين به جميعا، بما فيهم الأعداء، كما تبين ذلك في تعامله مع المعارضين الذين برغم هزيمتهم أمامه إلا أنه كان حليما سمحا، ومع أسرى الحرب الفرنسيين، بل تعدى ذلك إلى إقامة الصلح بين المتناحرين والمتقاتلين، ففي فتنة أحداث مايو 1860م الواقعة بين المسلمين والمسيحيين في الشام، تجسدت حكمة الأمير وفكره السمح في الإصلاح بين المسلمين والمسيحيين ليعبر بذلك عن روح التسامح بين الأديان وإمكانية التعايش السلمي بين الشعوب والمجتمعات، إذ أطفأ نار الفتنة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس بين المسلمين والمسيحيين في دمشق، فجمع أعيان القوم ووجهاءهم وألقى على مسامعهم خطبته الشهيرة محذرا فيها من عواقب الطائفية وسفك الدماء ويقظة الفتنة النائمة، وبين لهم أن الأديان السماوية قد قامت على التسامح والدعوة إلى التعارف والتعاون في ظل الاحترام المتبادل للجوار والعهود والوعود والأمانات، واحترام الإنسان عموما.

ومما قاله في تلك الخطبة: "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، وأن يكون له إلى نفوسكم سبيلا"(أباضة، 1994، ص16).

وقد جاء في التأريخ للمذبحة، أنّ شاهد عيان ذكر دور الأمير، فقال: "لولا رجال الفضل وأهل الصلاح أصحاب المروءة كالأمير الخطير الذي شاع صيته في الآفاق،

الذي كان يطوف المدينة ليلا نهارا برجاله المغاربة الشجعان، ويناديهم: يا أمة الإسلام، إنّ ذلك لا يجوز في شرع ديننا، اعدلوا يا أمة محمد..."(عربيلي، 1913، ص156).

وبعد أن يئس الأمير من عدم استجابة الناس له، أمر رجاله المغاربة بالسعي في الأحياء والشوارع وإحضار المسيحيين إلى داره، حتى امتلأت داره، واقتدى به بعض أعيان المدينة، ومنهم سليم العطار وعمر آغا العابد وغيرهم، ووقفوا إلى جانب الأمير الذي أمر الرجال بالصياح في الناس وبخاصة حيث يتواجد الخائفون؛ فنادوا فيهم: أيها المسيحيون تعالوا لا تخشوا منا، إننا رجال عبد القادر، إننا هنا لإنقاذكم، تعالوا تعالوا"(تشرشل، 1982، ص283).

وتعرض الأمير عبد القادر إلى تهديد بعض الناس، بأن يحرقوا بيته وأخافوا من يقف إلى جانب الأمير في إيواء النصارى(مشاقة، 1908، ص177).

لكن الأمير ثبت على موقفه، وتعرض بيته إلى مهاجمة المهددين، وطلبوا منه أن يسلمهم النصارى الذين في بيته، فخرج عليهم برجاله وقال: "إنكم ستندمون حيث لا ينفعكم الندم، إنّي أنصح لكم أن ترجعوا عن غوايتكم وتعودوا إلى بيوتكم وأن تسمعوا نصيحتي، أرى نفسي مضطرا لأن أريكم العجائب والغرائب، فلا أوقفكم على قباحتكم هذه، وليس عندي سوى النزال والكفاح أنا ورجالي المستعدين أنْ يحاربوكم، ويثبتوا معي إلى النهاية حتى تهرق آخر نقطة من دمائنا على شفرات السيوف"، واستلّ سيفه وصاح: "خسئتم يا قوم، اذهبوا أيها الأنذال، هذا يكون جزاؤكم من الأمير، اعدلوا عن جهالتكم"(عربيلي، 1913، ص352).

5. رفعة مكانة الأمير عبد القادر بين الناس والدول:

لقد بلغ الأمير مبلغا في العفو التسامح مع الآخرين بما فيهم أعداؤه من أهل بلاده ومن خارجها، وعمل على الإصلاح بين الناس على اختلاف أديانهم، ونبذ الطائفية حيثما كانت، مما جعله يتقلد مكانة عظيمة بين الناس والأمم، إذ نال بعد إقامته الصلح بين المسلمين والمسيحيين في الشام، وسامَ الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب المخلص اليوناني، وأهدته ملكة بريطانيا بندقيةً مرصّعةً بالذهب(أباضة، 1994، ص18).

وقد كان رده على هذه الأوسمة والتقديرات لشخصه وعمله النبيل بأن ذلك من واجبه، وأن دين الإسلام وواجب الإنسانية هما سببان رئيسان دفعاه إلى التخلق بروح التسامح والعفو، والدعوة إلى الإصلاح ونصرة

الضعيف مهما تكن جنسيته أو دينه أو عنصره أو عرقه أو لغته.

ومن تلك الردود ما قاله مخاطبا ملكة بريطانيا بعد أن كرمته بتلك البندقية المرصعة بالذهب: "إنني لم أفعل إلا ما توجبه عليّ فرائض الدين، ولوازم الإنسانية" (أباضة، 1994، ص18).، انهالت على الأمير التكريمات من كل جانب، فقد لاقى استحسانا عالميا، إذ لم يستعمل السيف إلا دفاعا عن الأرض، ومحاربة الاحتلال، لكنه يحمل في اليد الأخرى سيف العدل الذي حمى به المستضعفين من الموالين والمعارضين، ودافع عن المسيحيين في الشام، فكان بحق ممثلا وجهَ الإسلام المتسامح.

6. نتائج وتوصيات:

يمثل الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجا مثاليا للتسامح في تاريخ الجزائر المعاصرة، إذ جسّد أقصى درجات الوعي في الزهد والعطاء، وقدّم دروسا تطبيقية رفيعة القيم، في الحوار والتسامح بين أفراد المجتمع الواحد، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الأطراف المتخاصمة، وبين الأديان والحضارات المختلفة. ويظل الأمير عبد القادر قيمة ثقافية إنسانية نادرة يشهد له الخصوم قبل الأصدقاء. وقد صاغ الأمير عبد القادر الجزائري بحكمته وفكره، أسس وقوانين تكفل احترام إنسانية الإنسانة وآدميته، مهما كان انتماؤه العرقي والديني، بما يتوافق مع إنسانية الإسلام التي تنظر إلى الناس من منطلق المجتمع العالمي الواحد، فلا تلغي أحدا على حساب آخر، بل إن رسالة الدين الإسلامي قد بعثت للعالمين جميعا على حد سواء.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1.7. المصادر والمراجع باللغة العربية:

1) أباضة نزار، (1994)، الأمير عبد القادر المجاهد. دار الفكر، دمشق، سوريا.

2) ابن عبد القادر محمد الجزائري (1964)، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. تعليق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، لبنان، ط:2،ج:2

3) أبو عمران سامية، (2005)، الأمير عبد القادر الجزائري رمز المقاومة الجزائري، مجلة المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر العاصمة، العدد11

4) العربي إسماعيل، (1984)، أعلام السياسة والحرب، الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش. مديرية الدراسات وإحياء التراث، الجزائر.

5) الوزير محمد السيد، (1984)، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وأثرها في أدبه، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، مصر.

6) بوعزيز يحيى، (1964م)، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري. دار الكتاب الجزائري، مطابع دار الفكر، دمشق، ط2

7) تشرشل شارل هنري، (1982م)، حياة الأمير عبد القادر. ترجمة: أبو القاسم سعد الله. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط2.

8) حرب أديب، (1983)، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

9) حقي إحسان، (1961)، الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد. المكتب التجاري للنشر، بيروت

10) خيربك بشرى، (2012)، دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية وتناقضاتها؛ تحفة الزائر ومآثر عبد القادر وأخبار الجزائر، أنموذجا. مجلة دراسات تاريخية، العدد 118، حزيران

11) زوزو عبد الحميد، (2006) مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط3

12) شريط عبد الله والميلي محمد، (1965)، الجزائر مرآة التاريخ. مكتبة البعث، الجزائر، ط1

13) شعابنة عبد الحميد، (2001م)، الأمير عبد القادر المجاهد المثقف والسياسي الفارس، مجلة أول نوفمبر، عدد:165

14) عبد القادر الأمير الجزائري، (1966)، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت.

15) عبد القادر الأمير، (2007م)، مذكرات الأمير عبد القادر. تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، الجزائر.

16) عربيلي إبراهيم أفندي، (1913)، مذبحة 1960 في دمشق. مجلة الكلمة، نيويورك، العدد3، السنة التاسعة. آذار

17) مراد بركات محمد، (1992)، الأمير عبد القادر الجزائري؛ المجاهد الصوفي. دار النشر الالكتروني. مصر

18) مشاقة ميخائيل، (1908)، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، القاهرة، ط1

2.7.المراجع باللغة الأجنبية:

19) Abouamdrane Chikh,(2000), LEmir Abd-el-Kader résistant et humaniste, Edit Hammoua, Alger.

8. ملحق الصور:

الأمير عبد القادر الجزائري

مبايعة الأمير تحت الشجرة

معسكر 27 نوفمبر 1832

إنقاذ المسيحيين

مذبحة دمشق 1860

الخديوي اسماعيل بصحبة الأمير في حفل افتتاح قناة السويس 1869م

مدينة القادر بولاية Lowa أمريكا

مراسيم نقل رفاة الأمير إلى بلده الأصل (الجزائر) دمشق 1966